اشتغال النسق الديني في رواية دروز بلغراد لربيع جابر

The preoccupation of the religious pattern in the novel druzebelgrade by rabihjabir

أمينة حماني*

جامعة مولود معمري، تيزي وزو- الجزائر hamani.amina@ummto.dz

تاريخ الإرسال:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2023-07-29	2023-12-07	2024-01-26

ملخّص: تعددت الخطابات الأدبية وتنوعت أساليب وطرق دراستها وتحليلها، ويبقى الخطاب الديني هو الخطاب المقدس الذي تمنح له المكانة في الدارسات الأدبية ويتعامل معه بحذر، وخاصة إذا بدأنا نبحث في تأويلاته وخفاياه في نص أدبي إبداعي، فنجد أنفسنا أمام ثلاث وحدات، وحدة الخطاب بمفهومه وتجليات هذا المفهوم الإجرائية المختلفة، ووحدة الدين بوصفه تصوراً يشترك بين مقولات عقائدية وأنماط وممارسات تتحدد وفق ضوابط ومقولات العقيدة، ووحدة النص الإبداعي الذي ينظر إليه على أنه ممارسة لغوية جمالية تقبل التلقي الذي يعني خصوصية بناء النص الأدبي ويعي في الوقت نفسه أحقيته في تأويل هذا النص الإبداعي على مستوى معين.

سنحاول في هذه الورقة البحث عن الأنساق الدينية في النص الروائي "دروز بلغراد" لربيع جابر، للكشف عن تلك العلاقة بين البعد الديني والبعد الروائي.

كلمات مفتاحيّة: نسق؛ خطاب؛ رواية؛ ديني.

Abstract: Literaydiscaureses have multipied and the methods and methods of studying and analyzing them have varied and the religious discourse remains the s sacred discourse that is given a place in literary studies and is dealt with caution, especially if we start looking at its interpretations and mysteries in a creative literary text, so we find ourselves facing three units, the unity of discourse in its concept and the manifestations of this concept different procedures, and the unity of religion as a concept that shares ideological statements, patterns, and practices that are determined according to the controls and statements of belief, and the unity of the creative text,

* المؤلف المرسل

which is seen as an aesthetic linguistic practice that accepts reception, which means the privacy of building the literary text and at the same time isaware of its entitlement to interpret this creative textat the level pecifisc.

In this paper, we will try to search for religious patterns in the fictional text "Druze Belgrade" by RabihJaber, to reveal that relationship between the religious dimension and the fictionaldimension.

Keywords: the speech; the novel; Religious; The format.

1-مقدمة: تعددت الخطابات الأدبية وتنوعت أساليب وطرق دراستها وتحليلها، ويبقى الخطاب الديني هو الخطاب المقدس الذي تمنح له المكانة في الدارسات الأدبية ويتعامل معه بحذر، وخاصة إذا بدأنا نبحث في تأويلاته وخفاياه في نص أدبي إبداعي، فنجد أنفسنا أمام ثلاث وحدات، وحدة الخطاب بمفهومه وتجليات هذا المفهوم الإجرائية المختلفة، ووحدة الدين بوصفه تصوراً يشترك بين مقولات عقائدية وأنماط وممارسات تتحدد وفق ضوابط ومقولات العقيدة، ووحدة النص الإبداعي الذي ينظر إليه على أنه ممارسة لغوية جمالية تقبل التلقي الذي يعني خصوصية بناء النص الأدبي ويعي في الوقت نفسه أحقيته في تأويل هذا النص الإبداعي على مستوى معين.

وإذا كان الخطاب في علاقته بالديني يشكلان علاقة الظاهر بالباطن، كمستويين يكونان موضوع التلقي، فالخطاب نسق بنائي تشكله في حالة الخطاب اللغوي، دوال ينتجها مرسل إلى متلقي، أما الديني فهو المقولة التي تمثل حمولة هذا الخطاب، وكيفية تأويله، وهو ما جعلنا نتطرق لهذا الموضوع، للبحث في تلك الأنساق الدينية التي تزخر بها النصوص الأدبية، ونخوض غمار البحث في التأويلات الممكنة لهذه الأنساق، انطلاقا من التساؤل الآتي: **كيف يمكن للمعنى الأدبي أن يستثمر ممكنات الخطاب الديني؟ وكيف نستطيع تأويل هذه القضايا الدينية المتغلغلة في النص الأدبي الإبداعي ضمن نسق ديني؟ كيف استثمر الروائي ربيع جابر الخطاب الديني في روايته "دروز بلغراد. حكاية حنا يعقوب"؟**

2-الإطار المفاهيمي للدراسة: قبل الحديث عن الخطاب الديني وتأويلاته النسقية الممكنة في كنف النصوص الإبداعية فضلنا إيراد بعض المفاهيم النظرية لأهم لعناصر التي بنينا عليها مداخلتنا هذه قبل توظيفها في الجانب التطبيقي.

1.2 تعريف الخطاب الأدبي: يمثل الخطاب الأدبي Discours littéraire، شغلا شاغلا وهاجسا مؤرقا لجل الناقدين والدارسين في العصر الحديث والمعاصر، خاصة ما يمت بصلة إلى التشكيل الفني والتطور الزمني للرواية العربية المعاصرة، فالخطاب الأدبي حسب سعيد يقطين هو خطاب استقطب عديد المجالات والتخصصات التي شكلت العلامات الدالة على سيرورتها المفهومية ومنها المجال الأدبي[1]، وإذا تحدثنا عن الخطاب الأدبي عامة فلا ننسى أن نذكر الخطاب الروائي كجزء منه، ذلك الخطاب الذي يعتمد في بنائه على مجموعة من اللبنات الأساسية المشكلة لإطاره الفني والجمالي، تمثلها الشخصيات والزمان والمكان والحدث والسرد، فهو نص متكامل، تتعدد أبعاده الجمالية بتكاثف عناصره مختلفة ومتعددة المشارب، متنوعة الرؤى، منفتحة الآفاق التي تبوح كلها بأسراره ومغاليقه.

2.2 تعريف الخطاب الديني: يوصف الخطاب (بالديني) نسبة إلى الدين، والدين في اللغة: الجزاء والمكافأة، يقال دنته بفعله، أي جزيته، ويوم الدين : يوم الجزاء، ويطلق بمعنى الطاعة، يقال دنت له: أي أطعته، وجمعه أديان[2]، والمراد بالدين عند إطلاقه في تعبيرات المسلمين: الإسلام، أما غير المسلمين فقد يريدون عموم الأديان وقد يقصدون الإسلام دون غيره، والخطاب الديني هو كل سلوك أو تصرف يكون الباعث عليه الانتماء إلى دين معين، كما يراد به كل ما يصدر عن رجال الدين من أقوال أو نصائح أو مواقف سياسية، فهي تتصل اتصالا وثيقا بمصادر الدين الذي يتحرك في إطاره .

فالخطاب الأدبي يستثمر النص الديني من خلال بناء موضوعاته على قضايا دينية، أو إدراجها في ثنايا نصه هذا من جهة، وكذا بلجوئه إلى قضية التناص التي يتقاطع فيها النص الديني مع النص الأدبي مما سيحقق للمعنى الديني دينمياته باستثماره الممكنات الجمالية والفنية المتاحة في النص الأدبي، وإمكانية التأثير الفعال في المجتمع وتوجيه ما يصدر عن المتلقي من أفعال، فالعلاقة بين النص الأدبي والخطاب الديني لا تظهر مباشرة وبطريقة سطحية إنما تحتاج لعملية تأويلية من قبل قارئ نموذجي يبحث في سياقات وأنساق هذا النص ، ويتغلغل في ممكناتها ويكتشفها بنفسه، فالأنساق هي عبارة عن مخازن للحقائق في جوف النصوص ، فما هو هذا النسق؟

3.2 تعريف النسق: تنوعت التعريفات التي تناولت مفهوم النسق، فعرفه تالكوت بارسونز بأنه ينطوي على أفراد مفتعلين تتحدد علاقتهم بعواطفهم وأدوارهم التي تنبع من الرموز المشتركة والمقررة ثقافيا في إطار هذا النسق[3]، فالنسق عموما هو انتظام بنيوي يتناغم وينسجم فيما بينه ليولد نسقا أعم وأشمل، فعلى سبيل المثال يوصف المجتمع بأنه نسق اجتماعي عام ينتج عنه مجموعة أنساق فرعية انتظمت معه وشكّلته فتولد عنه نسق سياسي وآخر اقتصادي وعلمي وثقافي وديني، تنسج علاقاتها فيما بينها في مسافات متفاعلة متداخلة[4].

ومن هذا التصور تجد الدراسات التي اشتغلت على قراءة الأنساق مجالا منفتحا على التأويل، وهذا النسق يخضع بدوره إلى شروط موضوعية تتمثل في الجوانب الاجتماعية والثقافية[5]، وقد أصبح مفهوم النسق متضمنا لأبعاد النص كافة ومكونا لأسس تلقيه وتأويله وسبل التفاعل معه، لأن بنيات النص الثقافية والاجتماعية ترتبط بسياقاته التي كتب فيها لتستمر في أزمنة أخرى فتنتج أبعادها من داخل الأنساق الخفية والمحملة في ذلك النص، والتي تكون أرضا خصبة لعملية التأويل.

4.2 تعريف التأويل: ظل التأويل مقتصرا على الكتاب المقدس لكنه وسّع مجاله في غضون القرن التاسع عشر ليطال إشكالية التأويل النصي قاطبة[6]، وإذا عدنا إلى التأويل وعلاقته بالنص الأدبي نقول إن الفهم الخاص لأنساق الخطاب الأدبي يرتبط بالمؤول الثقافي، وذلك من أجل الكشف عن حركية هذه الأنساق وفاعليتها في بنية الخطاب الأدبي، بمعنى أن عملية تأويل الخطاب الأدبي هي بمثابة عملية تشريحية لأنساقه الداخلية والحفر فيها والبحث في خفاياها وأغوارها، وهذا ما سنحاول القيام به في الجزء التطبيقي من هذا المقال.

بعد إيراد بعض المفاهيم النظرية التي تظهر علاقة الخطاب الديني بالنص الإبداعي، وتغلغل الأنساق الدينية في النصوص الإبداعية ومحاولة توظيفها للخطاب الديني في قالب إبداعي أدبي، سينصب اهتمامنا فيما يلي على الرواية ذلك الجنس الأدبي الذي لعب أدوارا ريادية في الساحة الأدبية والثقافية، بفضل القدرة الاستيعابية الداخلية والاختزالية التي يملكها، فبإمكان الرواية أن تحوي قضايا اجتماعية وثقافية ودينية وسياسية، إذ تحمل تارة رؤى ثقافية، وتارات عديدة أبعادا دعوية ونداءات إصلاحية، لتقولبها في ثناياها وفق جدلية بين الظاهر والباطن، بين السطحي والعميق، تخبرنا بأشياء بينما توكل لنا مهمة البحث والتحري عن أشياء لم تصرح لنا بها، بل تركتها غامضة، لذا يتعذر دخول هذا العالم وولوجه قبل المرور بالمعطى النصي، كما لا يتعذر الوصول إلى المعاني الموجودة في لبها دون فك شفراتها والسير في دهاليز فراغاتها وبياضاتها المبثوثة في ثناياها، فالرواية هذا العالم العجيب والسحري لا يبلغ قمته وروعته إلا إذا استطاع مؤلفه الحفاظ على سره، ومن هنا حاولنا أن نقوم بقراءة لمتن روائي سبق وأن اشتغلنا عليه ورأينا أنه أرض خصبة للدلالات والأنساق الدينية، حيث اخترنا رواية لربيع جابر **دروز بلغراد. حكاية حنا يعقوب.**

3-النص الحكائي / ملخص الرواية: يقدم الروائي اللبناني "**ربيع جابر**" روايته "**دروز بلغراد. حكاية حنا يعقوب**" في 235 صفحة، عن دار الآداب ببيروت، لبنان، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب[7]، وهي رواية تحكي قصة النفي والعودة اللبنانية، قصة تحمل في ثناياها تراجيدية الحزن القاتل للشاب "**حنا يعقوب**"، 22 سنة، مسيحي بسيط، يبيع البيض المسلوق في الميناء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في بيروت، إبان الحكم العثماني.

تحكي الرواية حقيقة تاريخية عاشها الشعب اللبناني، حيث نفى الحكم العثماني ما يزيد عن 500 درزي، متهمين بجرائم ارتكبوها ضد المسيحيين في جبل لبنان، وفي خضم هذه الأحداث رمى القدر بالشاب "**حنا يعقوب**" في مكان وزمان غير مناسبين، حيث سجن بدلا من أحد الدروز، الذي افتداه زعيم عشيرته برشوة من الباشا العثماني، ليساق"**حنا يعقوب**" إلى السجن بالصدفة وهو يبيع البيض في المرفأ، ليجد نفسه مقيدا في سفينة مع مجموعة من المتمردين لا يدري كيف ومتى ولماذا وإلى أين؟

لتبدأ رحلة العذاب الطويل "**لحنا**" التي تستمر12 سنة، يواجه خلالها ضربا من العذابات وانسحاق الذات في سجون بلاد لا يعلمها، وجريمة ليس له علاقة بها، تاركا خلفه هيلانة زوجته الصغيرة 17سنة وابنته بربرة ذات الشهور القليلة، وقد سار اسمه"سليمان عز الدين غفار"، وصار قانونيا شقيقا لثلاث إخوة دروز، كرهوه يوما وأحبوه دوما، ولكنهم لم يقاوموا الإحساس بالذنب لكل ما جرى له، وكأن لعنة براءته رافقتهم في هذه الرحلة.

ينتقل الدروز في رحلة عذاب هائلة في عرض البلقان يطحنهم التعذيب والإهانات والجوع والمرض والقمل، ويتعفنون في أقبية سجون طينية مظلمة وباردة حيث لا يدركون الليل من النهار، تتناوبهم زنازين بلغراد والهرسك وكوسوفو وتتجمد عروقهم من الصقيع والرعب، وسقوط كثيرين منهم موتى الأوبئة والكوليرا وهواء بلاد البلغار الأصفر، ومن

بلغراد إلى الهرسك إلى كوسوفو والجبل الأسود يصل"**حنا يعقوب**" إلى حافة الجنون متسائلا عن جريمته وذنبه.

ثم يشتغل هؤلاء الدروز لأعمال خاصة، فتارة في كروم نازلي هانم وتارة ثانية في بناء الأسوار لجودة باشا، أو تصليح طريق أفسدته السيول أو محاربة الذين شقوا عصا الطاعة عن السلطان، فكانوا يعملون في أجواء صعبة، يسقط المطر الغزير عليهم فيتجمدون من الصقيع والبرد، أو حتى تسقط عليهم حجارة تفتك بأحدهم، والأدهى والأمر من ذلك كله التنكيل بهم إذا ما حاولوا الهروب مثل ما حدث للجندي البوسني، أو حمل آخرين لعاهات ستلازمهم مدى الحياة، كالشيخ الذي فقد النور من عينيه والشيخ عثمان الذي بترت يده.

وبالرغم من هذه الأجواء المحزنة التي عاشتها شخصيات الرواية، إلا أن الروائي "**ربيع جابر**" استطاع أن يرسم لوحة فنية عن المروءة ونبل الدروز وإخلاصهم في العمل، فقد امتصوا بروحهم الكلية وصبرهم المذهل مشاق النفي والسجن والمرض والموت المتتابع، فرسموا قدوة في الإخلاص في عملهم وغض البصر، والتمسك ببعضهم البعض، فبالرغم من أن الرواية أحادية المسار ومتوقعة الأحداث من نفي- وهذا النفي فيه توق للعودة- إلا أنها حملت العديد من الدلالات والشفرات والعلامات، فالدروز وعلى الرغم من تماسكهم ومحبتهم لبعضهم البعض إلا أن لعنة سوء الحظ حالت بينهم وبين ما يتوقون إليه، وكانت سلطة القدر أقوى من أمانيهم وأكثر سلطة من حبهم لبعضهم البعض، فقد قتل الدروز برصاص غادر وقتلت معه أحلامهم بالعودة لأهاليهم .

ليحكم القدر على **حنا** بإكمال مسار العذابات وحده، بعد أن فقد رفاق دربه، هؤلاء الرفاق الذين ساعدوه وخففوا عنه ظلم السنين، فيعود **حنا يعقوب** من الهرسك إلى بلاده بعد 12 سنة من الغياب والعذاب، مع قافلة للحجاج متجهة إلى مكة، فيصلي

معهم صلاة المسلمين، ليصل إلى حلب ثم دمشق، ومن دمشق يعود إلى بيروت، لتنتهي معاناة **"حنا يعقوب"** باستنشاقه الهواء، ولكن أصوات رفاقه لم تغادر مسامعه، وكأن "**ربيع جابر**" يقول لو لم يجر القدر حنا لهذه المغامرة المحزنة لما تعرف على سماحة أبناء بلده وتسامحهم وتعاونهم مع بعضهم البعض.

ففي"دروز بلغراد حكاية حنا يعقوب" خرج حنا مسيحيا وتعذب درزيا واستراح مسلما ليصور بذلك "**ربيع جابر**" من خلاله صورة لإمكانية التعايش بين المسلمين والمسيحيين، فكانت الرواية مليئة بالأحداث والحكايات الثانوية مثل حكاية مراد وبناته الثلاثة، وكذا الحكايات التي صادفوها في رحلتهم، هذا كله من جهة، وحياة هيلانة وابنتها باربرة التي تنتظر العودة وكلها أمل في لقاء زوجها من جهة أخرى، ليختم **ربيع جابر** الرواية بلقاء رائع لحنا وعائلته الصغيرة في مشهد مؤثر.

4-تأويل الأنساق في الرواية: يحمل النص في بنائه الخطي والداخلي عددا من الدلالات والأنساق، وتعمل هذه الدلالة النسقية أرضا خصبة للكشف والتأويل، وتعمل على التسليم بوجود الدلالات الصريحة منها والضمنية والتسليم بالقيم الفنية وغيرها من القيم النصوصية التي لا تلغيها الدلالات النسقية [8]، فالأنساق هنا ما هي إلا مجموعة من العلامات والشفرات ذات الدلالات المتنوعة والتي تلعب أدوارا خطيرة في عملية التأويل والبحث عن المسكوت عنه.

فالنسق هو دلالة مضمرة، منكبة ومنغرسة في الخطاب، صنعتها الثقافة، ليستهلكها القراء والكتاب، مع العلم أن النسق وإن كان ذا طبيعة سردية يساهم في تفعيل النص وبنائه إلا أنه لا يظهر مباشرة [9]، بل هو نسق عجائبي يملك من القدرة الجمالية والبلاغية ما يمكنه من الاستقرار والطمأنينة فيها، فيأتي دور القارئ هنا ليحفز هذه الأنساق ويحفر فيها ليظهر ما تخفيه، وهذا ما حاولنا قراءته في "**دروز بلغراد حكاية حنا يعقوب**"، التي وجدناها ثرية بالأنساق الثقافية والدلالية، شملت على أنساق تاريخية

أزلية وراسخة، كانت لها الغلبة في الرواية، إذا ما قلنا إن الرواية التي بين أيدينا هي رواية تاريخية بالدرجة الأولى، وكذا أنساق سياسية كانت ضرورية إذا ما قلنا إن روايتنا كان منطلقها الواقع وتحمل في ثناياها سياسات لهذا الواقع ولطالما وجدت النزاعات، فالسياسة هنا تكون سيدة الموقف، دون أن ننسى ذالك النسق الحساس الذي ما كان ليختفي حتى يظهر في مؤشرات وعلامات تارة بعد الأخرى في الرواية، وهو النسق الذي سالت حوله الدماء وهو الذي سيكون حسب "**ربيع جابر**" نعم الدواء، إنه **النسق الديني** .

لقد شهد العالم منذ الأزل اختلافات وتنوعات، من حيث الاعتقادات والتوجهات، من حيث الأفكار والانتماءات، ومع مرور السنوات بدأت تقنن هذه النزاعات وتوضع لها أسامي ومصطلحات، وما حملته روايتنا من حكايات ودلالات يحتاج في نظرنا لموضعة وتأويلات، فـ"**دروز بلغراد**" حملت في طياتها نوعا من هذه الانقسامات والاختلافات، وإن صح تسميتها بالطوائف والتوجهات التي ما هي إلا نسق من المعتقدات والمفاهيم والأفكار التي تحملها وتؤمن بها مجموعات من الناس يجمعهم دين أو لون أو حتى جنسيات، وهي مندرجة في مرتبتها الاجتماعية وتفصلها عن بعضها حواجز اجتماعية كثيرة[10].

4-1- النسق الديني في دروز بلغراد: لقد خلق الله البشرية وأرسل الرسل والأنبياء لإعلاء كلمته وتوحيده، ولتتعارف الشعوب فيما بينها وتتعايش، وهذا ما دعت إليه كل الرسالات السماوية، وأن على الشعوب التصديق والإيمان بها، وهذا ما نصت عليه أحكام ديننا الحنيف، الذي جعل الإيمان بالرسل جميعها ركنا من أركان الإيمان، حيث يقول تبارك وتعالى في كتابه العزيز: **"آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ"**[11].

ومن أجل ذلك كان التعايش بين الأديان واحترام الآخر من شيم الرسول صلى الله عليه وسلم، وسيرته في ذلك خير دليل، ومن هنا كانت انطلاقتنا للحديث عن الأبعاد الدينية التي شملت عليها الرواية، إذ حملت في ثناياها قضية في غاية الأهمية، وهي التعارف والتحاور بين الأديان، والتعايش مع الآخر في ظل الطائفية، بداية بذكر الطائفة الدرزية التي بنى عليها "**ربيع جابر**" روايته، فذكر بعض عادات أفرادها وبعض الطقوس الدينية التي يمارسونها، فهذه الرواية عرّفت بهذه الطائفة بصورة غير مباشرة، ومرد ذلك إن صح تأويلنا إلى الأصول الدرزية للروائي "**ربيع جابر**"، فثمة من هذه الناحية نسق ديني يعرّف بها، فهي طائفة دينية تفرعت من المذهب الإسماعيلي التي تعود أصولها إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي، الذي يؤمن أفراد تلك الطائفة بإمامته، وهي ذات أفكار واعتقادات دينية تعود إلى غلاة الباطنية الذين يعتقدون بألوهية الحاكم[12]، والاسم الحقيقي للدروز هو الموحدين، أما تسميتهم هذه فتعود نسبتها إلى نشتكين الدرزي الذي رفضه الدروز فيما بعد لزندقته حسب وصفهم له، مع العلم أن الدروز يحتفظون بتفاصيل عقائدهم السرية ولا يبوحون بها، وأن أفكارهم الدينية في معظمها ذات مصادر غنوصية مستمدة من الفلسفة الأفلاطونية، كما أن لهم مبادئ ومعتقدات خاصة بهم، تميز مذهبهم عن باقي المذاهب ومنها:

– ألوهية الحاكم. – القول بالتناسخ. – إنكار القيامة.

كما أن الدروز لا يدخنون، وهذا ما وجدناه صريحا في الرواية عندما عرض عليهم الجنود عند الباشا التدخين فرفضوا، وهم كذلك لا يشربون الخمر ويحفظون ألسنتهم ويدافعون حتى الموت عن وطنهم، كما أن الدروز يعرفون بوصاياهم السبع:

1. صدق اللسان
2. حفظ الإخوان
3. ترك عبادة العدم والبهتان.

4. البراءة من الأبالسة والطغيان.
5. التوحيد لمولانا في كل عصر وأوان.
6. الرضا بفعل مولانا كيف ما كان.
7. التسليم لأمر مولانا في السر والحدثان[13].

والملاحظ أننا وجدنا هذه الوصايا والمعتقدات في الرواية بشكل ضمني تارة وصريح تارات عديدة، فمرة في التعامل مع الغير، وأخرى في الحوار بين الدروز وغيرهم، ومرة على لسان غير المنتمين إلى الطائفة الدرزية، وتظهر كذلك في ذكرهم لبعض الطقوس والمراسيم التي يؤدوها في عبادتهم الدينية، ونعتقد أنها ممارسات للشعائر الدينية للدروز بثت في الرواية للتعريف بمعتقداتهم، ومنها أنهم في مساء كل جمعة يجتمع العقال في أماكن العبادة (الخلوات) ويستمعون إلى ما يتلى عليهم من الكتاب المقدس، ثم تتلى بعض الرسائل البسيطة (رسائل الحكمة)، ليقوموا في الأخير بجمع هذه التلاوات وإسماعها للعامة في يوم عيدهم وهو يوافق عيد الأضحى عند المسلمين كافة[14].

ونفهم من هذا أن "**ربيع جابر**" حاول التعريف بهذه الطائفة بطريقة غير مباشرة، وحاول الوصول من خلال ذلك لفكرة التعايش مع الغير من خلال التقارب في العادات والتقاليد، حيث يرى أن هذه العادات الاجتماعية متشابهة في العالم الإسلامي كله وأن التعايش فيها يتجسد من خلال تلك العادات واللقاءات والمناسبات، إما أسبوعيا في صلاة الجمعة، أو سنويا في العيدين، وكذا في الحج حيث يلتقي أفراد من العالم الإسلامي كله[15]، وهذه المناسبات ذكرت كلها في الرواية لتعمل على ترسيخ فكرة التعايش الحقيقي لدى القارئ، وأنها فكرة ليست خيالية وإنما منتقاة من الواقع اليومي للشعوب العربية وحاول إيضاح ذلك بأخذ عينة من المجتمع اللبناني والمتمثلة في شخصية "**حنا يعقوب**" المسيحي الذي استطاع العيش مع الدروز برغم وجود تلك

الاختلافات الطائفية، موضحا بذلك أنهم ليسوا سوى طائفة إسلامية من حقها ممارسة عاداتها ومعتقداتها، وأنها فئة مسالمة أربكت الظروف هدوءها وأشعلت نار الفتنة الطائفية بين أبناء الوطن الواحد الذين كان بإمكانهم التعايش معا بعيدا عن التعصب والتطرف وبعيدا عن السياسات النظامية الفاسدة .

ذهب "**ربيع جابر**" إلى أبعد من ذكر الخلاف وأطرافه، بل حاول أن يرسم صورة للتعايش وذلك من خلال توظيفه لقضية الحوار التي أصبحت تشكل في عالم اليوم ضرورة من ضروريات العصر، غايتها التغلب على العديد من المشكلات الحياتية، فقد أصبح الحوار إحدى السمات المميزة للعصر الحالي، وأهم مجال وميدان للحوار هو الميدان الديني لما للدين من أثر لا يمكن تجاهله في حياة الأفراد والمجتمعات.

يقول أحد اللاهوتيين في ألمانيا، من دعاة حوار الأديان، أنه" لن يكون هناك سلام بين الأمم، ما لم يكن هناك سلام بين الأديان، ولن يكون هناك سلام بين الأديان ما لم يكن هناك حوار بين الأديان"[16]، فالحوار هو السبيل السليم للوصول بالبشرية إلى بر الأمان، وذلك من خلال التخفيف من حدة الصراعات الدينية والطائفية والسياسية بين الدول، وقد لمسنا دعوة ضمنية من"**ربيع جابر**" لحوار الأديان، وذلك وفق صور سردية رسمها في "**دروز بلغراد**" بين المسيحيين والمسلمين، في قالب حواري مكثف بين **حنا** المسيحي و**قاسم** الدرزي المسلم.

وقياسا على ذلك، نقول إن الشعوب عامة والعربية خاصة في أمس الحاجة للحوار وذلك للتقليل من الصراعات الحاصلة بين الشعوب بسبب التعصب لدين ولتوجه، والأديان من سماحة القرآن ومحبة الإنجيل تدعو لصداقة الآخر، والتأقلم معه وهذا ما ختم به "**ربيع جابر**" روايته في شكل صورة رائعة لتقبل الآخر، والتأقلم معه، فصلى **حنا** يعقوب المسيحي صلاة المسلمين بصورة لا إرادية وارتاح في قافلتهم المتجهة إلى بيت

الله، فعرف سماحة الإسلام ومعنى التعايش مع الغير، **فحنا نفي درزيا وتعذب مسيحيا واستراح مسلما.**

وما يمكن استنتاجه من خلال قراءة للنسق الديني في دروز بلغراد حكاية حنا يعقوب، أن الطائفية وتدمير الذات والمجتمع لا يسلمان من قدرية تراجيدية تلقي بكاهلها على الواقعين السياسي والاجتماعي، ولقد كان المتخيل الروائي صدى لهذا القدر التراجيدي، وفي الآن نفسه كان وسيلة لرفضه ومواجهته عبر ترسيخ قيم إنسانية عامة، عن طريق تحقيق جمال فني بارع ميز النص الروائي، وبذلك يصدق قول هنري جيمس عن فن الرواية على دروز بلغراد ذلك أن "الالتزام الذي يجب أن ترتبط به الرواية سلفا دون أن تجلب لنفسها تهم التعسف، هو أن تكون ممتعة، وهذه هي المسؤولية التي تقع على عاتقها".

ولقد كان "**ربيع جابر**" وفيًا لهذه القاعدة الفنية، فحقق لروايته، دروز بلغراد حكاية حنا يعقوب، شرط المتعة عبر توظيف صيغ فنية سردية متنوعة ومتعددة، واستطاع أن يتفنن في توظيف الجانب الديني في قالب أدبي إبداعي يرسل من خلاله رسائل توعوية باسم المحبة إلى قارئ فطن إن استطاع أن يلمس هذه الأنساق الدينية المخبأة في الرواية، التي وقفنا عند بعضها في هذه القراءة، ولمحنا إلى بعضها الآخر، وهو ما يمكن للقارئ أن يقف عنده بنفسه، مع العلم أن روايتنا هذه ليست مجرد حكاية تاريخية تتشابك مع أحداث العصر الحالي، إنما تطرح مواضيع اجتماعية وسياسية وفكرية في رؤية كونية وفلسفة عالمية نادرة، في مفارقة الواقع، عبر التاريخ، في رواية زمنية متنوعة في فصولها العجيبة التي نسجت بمهارة راو متمرس متخف يمتلك براعة الوجود.

5-خاتمة: جماع القول في كلّ ما مضى إنّ قراءتنا هذه، لم تكن سوى محاولة تأويلية، ومغامرة معرفية، حاولنا خلالها التعرف على العالم التأويلي، وهو ما أتاح لنا من خلال

دراستنا الوصول إلى استنتاج مفاده أن كل الأمم لها نصيب من التأويل، من القديم إلى الحديث إلى المستقبل، ومن ذلك خرجنا بمجموعة من النتائج:

✓ إن التأويل لا يشكل فائضاً في المعنى، ولا يشير إلى دلالة عرضية يمكن الاستغناء عنه، إنه على العكس من ذلك، إضافة دلالية هامة مخبأة في المرئي الظاهر أو في مضامين بلورتها الممارسة الواعية في غفلة منا.

✓ إن ضوابط التأويل وحدوده ومعاييره لا يمكن البحث عنها خارج التصورات التي نملكها عن المعرفة والحقيقة والنقد، من الصعب جدًا التأكد من صحة تأويل ما، ولكن من السهل جدًا التعرف على التأويل الرديء، مع العلم أن رداءة هذا التأويل تكمن في تلك الرغبة في التأويل من أجل استعمال النصوص لغايات سياسية وإيديولوجية.

✓ إن التأويل هو جزء من رؤية حضارية يجب أن تؤسس لتعدد في الفكر قبل السياسة، حيث أن التأويل هو في واقعه تقبل الأخر، فالإنسان هو إنسان كوني، ليس فقط شخص داخل الانتماءات الدينية والمعرفية والسياسية، فالتأويل هو الانفتاح على البشرية.

✓ أضحى التأويل هاجسا نقديا ذا نزعة عالمية من حيث روافده التأملية أو الفلسفية، أم من حيث اتساع وتنوع استعمالاته التي تتعدى حدود النص الأدبي إلى مجالات فكرية وجمالية مختلفة، يتميز بمسألتين جوهريتين فهو من ناحية يقوم على قواعد منطقية صارمة، ويستند من جهة أخرى إلى إشراقات صوفية(الغنوصية والهرمسية).

✓ إن التأويل ما هو إلا نتيجة لطبيعة النص الأدبي، الذي يحدد طبيعته عن طريق أدبيته وأساليبه البلاغية وتكثيف اللغة التي بها سيقت الدلالة، ومن هنا يأتي تفرد النصوص وتمايز الكتاب والمبدعين، فالنص الذي يأتي نسيجه وتراكيبه غريبة وغير مألوفة هو النص الحي، أي النص الذي يخلق ويحدد شروط تأويله التي بها يضمن استمراره في الوجود لأن النصوص تحيا وتعيش بالقراءة الواعية والعالمة، حيث أن

القصد من قراءة النص هو الوقوف عما بداخله وتحليله، لكشف خباياه، ومعرفة خفاياه، وفتح أبوابه على تأويلية تقبل أقصى ما يمكن من قراءات فنية وجمالية ممكنة.

ومن النتائج الأخرى التي توصلنا إليها، أن مدونتنا يمكن أن ينظر إليها من عدة زوايا، وأنها كما يقول إيكو نص مفتوح، يمكن أن يؤول من عدة اتجاهات، لأن **"دروز بلغراد حكاية حنا يعقوب"** شملت على ثلاثية المقاصد (القارئ الذي اختارها من بين كل الروايات، **ربيع جابر** الذي أبدعها بأنامله وأحاسيسه، دروز بلغراد حكاية حنا يعقوب النص الذي حمل لنا عدد من الرسائل والدلالات).

كما أن **دروز بلغراد حكاية حنا يعقوب** تذكرنا بتلك المقولة القائلة إنه لا شيء جديد وكل شيء قد عمِل أو قيل مسبقاً، إلا أننا لا نتذكر ماذا حدث قديماً، ولا أحد من الأجيال القادمة سيتذكر ما فعلنا في الماضي، إنه عالم الأسرار والخفايا، فإذا أردت أن تفهم ما يحدث وتستوعب، عليك أن تدرك ما قد مضى وانقضى، فمن خلال معرفتك بالماضي البعيد تدرك الحاضر والمستقبل القريب، لأن الزمن في الغالب يتكرر بأشكال وأحداث وأسماء متشابهة، ولأننا كثيرًا ما ننسى فإننا نشعر أن ما حدث إنما هو جديد، وبكل بساطة هذا ما أراد **ربيع جابر** أن يقوله لنا وللشعب العربي، ولكل بلد عانى ويعاني وسيعاني من الطائفية، ما لم يبحث في تاريخه عن أسباب العلل وعن العلل بحد ذاتها ويتفاداها، لأن التاريخ بكل بساطة يعيد نفسه، وهذه هي الرسالة التي بعث بها **ربيع جابر** لقرائه ليفهموها ويعقلوها ويتدبروها.

كما أن روايتنا حملت في قالب تعاضدي عددا من الأنساق التي تصب كلها في نسق شامل وهو النسق الثقافي الذي غيبناه في التطبيق لأنه يشمل على النسق الديني إذا ما قلنا إن الدين هو منبع الحضارة، وعلى النسق التاريخي إذا ما قلنا إنه من لا تاريخ له لا مستقبل ولا ثقافة له، وعلى النسق السياسي إذا ما قلنا إن الثقافة هي سلاح من الأسلحة السياسية التي فرضتها الدول التي تدعو للثقافة والتثقف، ولأن الإسلام دين

ومعاملة وحياة توصلنا إلى أنه هو السبيل الأمثل لأخوة الشعوب وتعايشها على اختلاف ديانتها وتوجهاتها، وهذا ما صوره لنا **ربيع جابر** حين بيّن لنا أن **حنا يعقوب** نفي مسيحيًا وتعذب درزيا واستراح مسلما مع قافلة متجهة لبيت الله، كما أنه ضمن رسالة مهمة للعالم هي أن الأخوة في الإسلام هي أخوة عالمية وما توظيفه لقافلة الحج إلا دليل يؤكد من خلاله أن البشر إخوة وهم يلتقون كل سنة في بيت الله الحرام.

قائمة المراجع:

1) ابن منظور، **لسان العرب**، الجزء الرابع، (دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط3 ،1999، 168/13، مادة دين).

2) أحمد يوسف، **القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة**، (الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 2007).

3) إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، **الموسوعة الميسرة**، للمصطلحات السياسية (عربي إنجليزي)، ص276،www.kotob arabia.com

4) ايديث كويزيل، **عصر البنوية**، تر: جابر عصفور، (دار سعاد الصباح، الكويت، ط1، 1993).

5) تيري إيغلتون، **نظرية الأدب**، تر: ثائر ديب، (منشورات وزارة الثقافة، دمشق سوريا، 1995).

6) جابر ربيع، **دروز بلغراد حكاية حنا يعقوب**، (دار الآداب، بيروت لبنان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب ط2،) 2012.

7) **سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي**، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1989).

8) الغذامي عبد الله، **النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية**، (المركز الثقافي العربي، لبنان، ط3 ،2005).

9) محمد مفتاح، **التشابه والاختلاف**، (المركز الثقافي العربي، بيروت،1996،).

الهوامش والإحالات:

[1]- ينظر: **سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي،** (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1989) ص22.

[2]- ابن منظور، **لسان العرب،** الجزء الرابع، (دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1999،3، 168/13، مادة دين).

[3]- ايديث كويزيل، **عصر البنوية،** تر: جابر عصفور، (دار سعاد الصباح، الكويت، ط1، 1993)، ص 411.

[4]- محمد مفتاح، **التشابه والاختلاف،** (المركز الثقافي العربي، بيروت،1996،) ص 157_156.

[5]- أحمد يوسف، **القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة،** (الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 2007)، ص 116.

[6]- تيري إيغلتون، **نظرية الأدب،** تر: ثائر ديب، (منشورات وزارة الثقافة، دمشق سوريا، 1995)، ص118.

[7]- جابر ربيع، **دروز بلغراد حكاية حنا يعقوب،** (دار الآداب، بيروت لبنان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2،) 2012.

[8]- الغذامي عبد الله، **النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية،** (المركز الثقافي العربي، لبنان، ط3 ،2005)، ص78.

[9]- الغذامي عبد الله، المرجع نفسه، ص79.

[10]- إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي،**الموسوعة الميسرة،** للمصطلحات السياسية (عربي إنجليزي)، ص276، www.kotob arabia.com

[11]- سورة البقرة، الآية 285.

[12]- غالب علي عواجي، المرجع السابق، ص368.

[13]- غالب بن علي عواجي، المرجع نفسه، ص390.

[14]– غالب علي عواجي، المرجع نفسه، ص378.

[15]– شاكر محمود، العالم الإسلامي اليوم، (دار القدوة للنشر والتوزيع، القاهرة مصر، دط، دت)، ص20.

[16]– جور انسكي أليكسي، الإسلام والمسيحية، تر: خلف محمد الجراد، (عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، دط، 1996)، ص8.